هندسة النسق الكولونيالي وتمثلات الهوية في رواية دمية النار لبشير مفتي

The Colonial Theme and IdentityRepresentation in Bashir Mufti'sNovel the Fire Doll

د. سهام أوصيف[1]
جامعة عباس لغرور خنشلة–الجزائر
مخبر: المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحداثية في الفكر واللغة والأدب
oucif.siham@univ-khenchela.dz

تاريخ الوصول 2022/12/23 القبول 2023/07/28 النشر على الخط 2023/09/15
Received 23/12/2022 Accepted 28/07/2023 Published online 15/09/2023

ملخص:

تمثل رواية دمية النار لبشير مفتي خطابا من الخطابات التي لم تتخلص من أسر الايدولوجيا على غرار الروايات الجزائرية، وترسم مشهدا بانوراميا لصورة الجزائر بعد الاستقلال وما خلفه الاستعمار الفرنسي من آلام واختلال في موازين القوى...، فهي تقوم على تعددية لغوية وتستثمر المهمش والمغيب ضمن المشهد الأدبي، كالاتكاء على مخزون التراث الشعبي والتاريخ... وتفضي إلى تأثر الروائي بهذه الأوضاع المجسدة في جملة من الأنساق المضمرة توحي إلى توافر نسق مهيمن يتعلق بالنسق الكولونيالي المنتج لضبابية وخلخلة الهوية الهجينة؛ لذا حاول البحث الغوص في ثنايا رواية دمية النار كاشفا عن جملة المسكوت عنه اتكاء على إجراءات النقد القافي؛ فإلى أي مدى يمكن تطويع هذه الإجراءات الغربية والمدونة العربية الجزائرية بحمولاتها الثقافية والإديولوجية؟

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية دمية النار، النقد الثقافي؛ صراع الهوية؛ النسق الكولونيالي.

Abstract:

***Bashir Moufti's novel**, "The Doll of Fire," serves as a representative exemplar of discourses that remain ensnared in the clutches of ideology, much akin to other Algerian novels. It vividly depicts a panoramic tableau of post-independence Algeria, replete with the enduring agonies and inequities wrought by French colonization. The novel capitalizes on linguistic multiplicity, harnessing the marginalized and the absent within the literary milieu, deferring to the reservoirs of popular heritage and historical underpinnings. The novelist's oeuvre reflects a palpable imprint of these embodied circumstances, alluding to the presence of a pervasive pattern interlinked with the colonial pattern that engenders the ambiguity and fluid nature of hybrid identity. Consequently, this research embarks on a profound exploration of the depths within the pages of "Doll of Fire," laying bare the silenced aspects through the prism of cultural criticism. To what extent can these Western and Algerian Arab literary methodologies be harmoniously assimilated, each bearing their own cultural and ideological freight?*

***Keywords:** The Algerian novel the Fire Doll; Cultural critique ; Identity Crisis; The Colonial theme.*

[1]– المؤلف المراسل: سهام أوصيف البريد الإلكتروني: **oucif.siham@univ-khenchela.dz**

1. مقدّمة :

اتّسمت الدراسات النقدية المعاصرة وتوجّهات الفكر النقدي ما بعد الحداثي –في العقود الثلاثة الأخيرة– بميلها نحو تجاوز الجانب الجمالي في النص الأدبي، والنظر إليه في ضوء الثقافة التي أنتجته، ممثلة في منهج النقد الثقافي –أحد المناهج ما بعد حداثية–؛ الذي يدعو إلى ضرورة الاستفادة مما تنتجه العلوم الاجتماعية والإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والسياسية على اعتبار أن النص أو الخطاب الأدبي منتج ثقافي يتم فيه البحث عن الأنساق المضمرة الثاوية داخله؛ ذلك أنه "يتجاوز التصنيف المؤسساتي للنص بوصفه وثيقة جمالية إلى الانفتاح على الخطاب بوصفه ظاهرة ثقافية أوسع، له نظامه الإفصاحي الخاص"[1]

2.الرواية ومنهج المقاربة:

أنتج المتن السردي الجزائري عدة خطابات يمكن قراءتها في ضوء مناهج نقدية مختلفة، يستطيع النقد الثقافي وإمكانيات الكشف عن الأنساق المضمرة في الخطاب ويميط اللثام عن كثير من المفارقات الدلالية بين منطوق النص ظاهرا وبين تأويله نسقيا وبين السياق المنتج لهذه الأنساق، ما يحيل إلى نتائج مغايرة للسائد من الأحكام والأفكار الثابتة عن المتن السردي الجزائري.

خاض **بشير مفتي** مغامرة روائية جديدة، تعبر عن تجربة روائية متميزة تكسر أسر الميثاق السردي السائد وتتجاوز التنميط الأدبي باحثة عن آليات جديدة في الكتابة؛ خاصة وأنها تصور جانبا من حياة الفرد الجزائري الملوّث بشتى طبوع ممارسات الاستعمار الغاشم من طمس للهوية والعادات ...وما غرسته من عنف وجهل وأنانية وكل أشكال موت الإنسانية... ؛ فشخصيات الرواية جبلت في أعماقها على اللا مألوف والمسكوت عنه الذي تعبر عنه جملة الأنساق المضمرة؛ وعليه يستند البحث إلى إجراءات النقد الثقافي لسبر أغوار الرواية والكشف عن الأنساق الفكرية السّائدة الثّاوية في الجمالي، وإماطة اللثام عمّا وراء الألفاظ، وما يحيط بها بغض النظر عن كون النص متفوّقا بلاغيا أم لا، مع تركيز الاهتمام بالأفكار والمعاني التي يروّج لها. والنظر إليه في ضوء الثقافة التي أنتجته (ثقافة الاستعمار طبعا).

ويمكن تمثل جملة من الخطوات الإجرائية الممثلة لمنهج النقد الثقافي؛ هي:

"–طرح أسئلة ثقافية جديدة كسؤال النسق بدلا عن سؤال النص.

–سؤال المضمر بدلا عن سؤال الدال.

–سؤالا للاستهلاك الجماهيري بديلا عن سؤال النخبة المبدعة.

–سؤال عن حركة التأثير الفعلية وهل هي لنص الجمالي المؤسساتي أم لنصوص أخرى لا تعترف بها المؤسسة بشخوصها ونصوصها وبتعبير آخر طرح أسئلة ثقافية مركزة ودقيقة.

–الانطلاق من النص أو الخطاب باعتباره حاملا لعلامات الثقافي التي ينبغي التعامل معها فهما وتأويلا لاستكشاف الأنساق الثقافية المضمرة.

–الانطلاق من النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية لاستكشاف الأنساق الثقافية.

[1] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط3، 2005، ص229.

-رصد حيل الثقافة التي تمر عبر أنساق النصوص والخطابات الجمالية والفنية والأدبية.[1]

3. رواية دمية النّار:

1.3.البطاقة الفنية للرواية:

المؤلّف: **بشير مفتي.**

المؤلَّف: **دمية النار.**

اللغة: العربية.

الموضوع: نقد سياسي، تاريخ.

الجنس الأدبي: رواية.

دار النشر: منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون.

تاريخ الإصدار: 2010.

نوع الطباعة: ورقي غلاف بسيط.

عدد الصفحات: 165 صفحة.

القياس: 21/14.

الجوائز: رُشّحت ضمن القائمة الطويلة لجائزة البوكر للرواية العربية عام 2012، ثم ضمن الروايات الست بالقائمة القصيرة.

2.3.ملخص الرواية :

تحكي رواية دمية النار لقاء بين الروائي بشير مفتي وبطل الرواية رضا شاوش الشخص الغامض الملامح والتصرفات الذي يسلمه مسودّة رواية عبارة عن سيرة ذاتية؛ تسجّل تفاصيل حياة البطل رضا شاوش رجل المخابرات السّاعي جاهدا ألا يشبه والده مدير السجن القاسي إبان السبعينيات لينتهي إلى الجنون فالانتحار-أي الأب- نهاية الثمانينيات من القرن العشرين. غير أن مشيئة الأقدار ترسم له ذات المسلك والمسار وينضم إلى جماعة تعيش في الظل ليصبح أحد رجالها الأساسيين بل دمية دراكولا تزرع الرعب والشر في سبيل إرضائهم وتحقيق مصالحه الشخصية.

4.الأنساق المضمرة في رواية دمية النار:

1-4 النسق الكولونيالي في الرواية.

تعبر رواية دمية النار عن تجربة روائية متميزة تكسر أسر الميثاق السردي السائد وتتجاوز التنميط الأدبي باحثة عن آليات جديدة في الكتابة؛ فهي تقوم على تعددية لغوية وتستثمر المهمش والمغيب ضمن المشهد الأدبي، كالاتكاء على مخزون التراث الشعبي والتاريخ...، وترسم مشهدا بانوراميا لصورة الجزائر بعد الاستقلال (جزائر البلد الحالم)، وما خلّفه الاستعمار الفرنسي من آلام واختلال في موازين القوى... ، وتفضي إلى تأثر الروائي بشير مفتي بهذه الأوضاع المجسدة في جملة من الأنساق المضمرة "...

[1] عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، دمشق، 2004، ص175.

فكل خطاب يخفي داخله القدرة على أن يقول غير ما قاله وأن يغلّف أيضا عددا كثيرا من المعاني وهذا ما يسمّى بوفرة المدلول بالنسبة للدال الواحد والوحيد وعليه فإن الخطاب امتلاء وثراء لا حد لهما"[1]

كما توحي الرواية إلى توافر نسق مهيمن يتعلق بالنسق الكولونيالي المنتج لضبابية وخلخلة الهوية الهجينة ذلك أن الخطاب الكولونيالي على حد تعبير **هومي ك. بابا** "جهاز يدير معرفة الاختلافات العرقية/الثقافية/التاريخية وإنكارها وتتمثل وظيفته الاستراتيجية المسيطرة في خلق فضاء لـ "شعوب خاضعة" عبر إنتاج معارف تُمَارَس من خلالها المراقبة ويثار شكل معقد من اللذة... أما غاية الخطاب الكولونيالي فهي أن يؤول المستعمرين بوصفهم شعوبا من أنماط منحطة بسبب من أصلهم العرقي وذلك لكي يبرر فتح هذه الشعوب ولكي يقيم بين ظهرانيها أنظمة الإدارة والتوجيه"[2]

لا يمكن عزل قراءة الخطاب الكولونيالي عن قراءة الأنساق الثقافية المضمرة التي مارست هيمنتها على النص باعتباره بنية لسانية جمالية، ومن ثمة فإنه يمكن تصنيفها إلى أنساق سياسية، اجتماعية، دينية، وفلسفية... وهو ما يحتاج إلى قراءة ثقافية لمختلف هذه الأنساق المبنية على ثنائيات ضدية.

يقصد بالنسق الكولونيالي في الرواية ليس فقط أثر الاستعمار الفرنسي وهيمنته على الشعب الجزائري فترة الاحتلال وإنما هيمنة السلطة الحاكمة على الشعب الجزائري بعد الاستقلال وكأنها الوريث الشرعي للاستعمار في همجيته واستبداده وقمعه... على حدّ تعبير الراوي:" نظام محكم الإغلاق مفتوح على شرفة للحلم وشرفة للهاوية"[3]

4-2 النسق السياسي والاجتماعي

- **نسق العنوان" دمية النار": الحلم المخضّب:**

وسم **بشير مفتي** روايته بـ: **دمية النار** ليوجّه القارئ إلى النص مانحا إيّاه سمات ترميزية إيحائية لربطه بما يلاقيه القارئ في نص الرواية أثناء القراءة؛ فهو يمثل " العمل كليا ويكون بمثابة الحاضن المركزي لمتن برمّته"[4].

يلاحظ أن العنوان مركب اسمي من كلمتين دمية والنار؛ وهو جملة اسمية بسيطة تتكون بحضور المسند الخبري **دمية النار** (خبر ومضاف إليه مجرور) وتقدير المسند إليه بضمير غائب محذوف "هو" عائد على البطل **رضا شاوش**، وقد تشكّل وفق اقتصاد معجمي" فكلما تقلص المستوى المعجمي للعنونة أضحى دال العنونة حرّا في الانزلاق، وإنتاج دلالات، فيبدو العنوان محفّزا للقارئ إلى محاولة حسم دلالية عبر قراءة النص والبحث عن الفرائض اللفظية والدلالية للعنونة"[5]

رمى **بشير مفتي** خيطا من خيوط نسيج رواية دمية النار ليدرك القارئ فيما بعد أنها إشارة إلى صورة **رضا شاوش** كعلامة ثقافية تحمل نسقا مضمرا يعبر عن ثنائية المركز والهامش في وضع أصبح فيه الفرد الجزائري المثقف مسيّرا مجرّدا من ميولاته الحقيقية بل مجبرا

---

[1] ميشال فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1975، ص110.

[2] هومي.ك.بابا: موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص141

[3] بشير مفتي: دمية النار، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص 32.

[4] عصام واصل: الرواية النسوية العربية، مساءلة الأنساق وتقويض المركزية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأدن، ط1، 2018، ص40.

[5] سهام لغويل:سيميائية الخطاب المحكي في الرواية الجزائرية المعاصرة-الكتابة النسوية أنموذجا، مذكرة لنيل الماجيستير، إشراف: ناصر ستنبول، جامعة وهران، أحمد بن بلة، 2015-2016، ص123.

على تنفيذ الأقوى سلطة؛ فيتحول من مركز طبيعي(رجل) إلى مركز غير طبيعي (رجل مسير لعبة) " وظهر لي رضا شاوش من هذه الفصيلة التي لا ترتبط بصحفي أو كاتب إلا لتستخدمه في لعبتها التي لم أكن متبينا قواعدها، وعندما لا يعرف الإنسان قواعد اللعبة فمن الأفضل أن لا يلعب أي ورقة لأن ثمنها سيكون فادحا للغاية على حياته وأمانته وصدقه"[1] وفي موضع آخر يتأسف على هذه الحالة المزرية مبديا رفضه القاطع لمثل هذه السياسات التي جبلوا وأرغموا عليها على حد تعبير الراوي: " تأسسنا ضد الحكم المفرد لكن بعد وفاة الزعيم شعرت أننا أخطأنا في توجيه السّهام، لقد كنت شابا مندفعا والعيب في القادة، هم كانوا يُحلّلون ويُسيّروننا بالطريقة التي يريدوننا أن نسير بها ... سرنا خلفهم وعندما بدأت الاعتقالات لم يعتقلوهم بل نحن، تَصوّر، هم تمكنوا من الفرار والبعض قام بصفقات مشبوهة مع النظام لقد صاروا اليوم من الوجوه البارزة فيه "[2]

تظهر براعة **الأديب بشير مفتي** في الربط بين الجميل الأدبي والقبيح الثقافي؛ فعنوان الرواية مثيرا مشوّقا يجمع بين الرعب والحلم، الهدوء والصّخب، الجمال والقبح، الخير والشّر؛ فالدمية تحيل إلى كل شيء جميل يزرع الفرح والسرور وينشر السعادة غير أنها مسيّرة لا تمتلك إرادتها في تصريف الأمور والأحوال أمّا النار فتشير إلى الرعب والخوف وكأن الروائي يرمي إلى تحول الفرد الجزائري في تلك الحقبة إلى شخص مسيّر دون إرادة يزرع الخوف والرعب رغم ما نسجه من أحلام وديعة غداة الاستقلال أضحت دمارا وخرابا...يستدل على ذلك من الرواية " حسنا سنشرب الويسكي الفرنسي في نخب الدم الجزائري"[3]

- **نسق المكان:**

يشكل المكان بنية من بنيات النص السردي فهو "الحيّز الذي تحرك فيه الشخصيات وتتفاعل معه، بحيث أنه مهم في تكون الحياة البشرية باعتبار أنه الجزء الأكثر تثبيتا لكيان الإنسان وهويته وتحديد تصرفاته كونه الأكثر ارتباطا بذاتيته"[4]

يمكن تمييز نوعين، هما: جغرافي وروائي؛ يمثل الجغرافي" الحيز المكاني والحكي عامة ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي فالروائي مثلا نظر البعض يقدّم لنا حدّا أدنى من الإشارات الجغرافية التي تشكّل فقط نقطة الانطلاق من أجل تحريك خيال القارئ"[5]، أمّا الروائي "هو بناء لغوي، يشيّده خيال الروائي والطابع اللفظي فيه يجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات التي تستطيع اللغة التعبير عنها"[6].

ترصد الرواية فضاءات متنوعة مغلقة ومفتوحة أسهمت بشكل ما في تكوين شخصية البطل **رضا شاوش**؛ وتصنف –في الوقت نفسه– كعلامة ثقافية تعبّر عن نسق معيّن هو الحرمان والاستبداد والظلم تارة والحرية والحب تارة أخرى، ولعلّ أبرزها في الرواية:

[1] بشير مفتي: دمية النار، ص18.
[2] المصدر نفسه، ص69.
[3] بشير مفتي: دمية النار، ص 19.
[4] ينظر: غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هالسا، المؤسسة الجامعيةللدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984، ص110.
[5] حميد لحميداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، 2000، ط3، ص53.
[6] بدر عثمان: بناء الشخصية الرئيسية في الرواية نجيب محفوظ، دار الحداثة، بيروت،1986، ط1، ص94

- **الجزائر : الذاكرة المنسية: المسكوت عنه:**

تتحدث الرواية عن المرحلة التي تلت الاستقلال في الجزائر وتسلم هواري بومدين السلطة والحرب الأهلية التي حدثت بعد سنوات قليلة من ذلك بين النظام وما عرف باسم الثوريين الجدد بعد فشل المشروع الوطني وتنامي الدكتاتورية – السبعينيات والثمانينيات–" كان أبي يحب خطب الرئيس بومدين(ذلك العسكري الذي أراد تغيير وجه الجزائر وحلم ببلاد أكبر من حجمها الحقيقي)... لقد أممها الزعيم، بطبيعة الحال من أجل اشتراكيته الوهمية"[1]، وهي في حقيقة الأمر سياسة موروثة عن المستعمر الغاشم أو نوع من التبعية للغالب لأن السلطة لم تلق مفرا من القمع والاستبداد لإحكام السيطرة والسيادة وفرض الهيمنة..." كانت السبعينيات تعني الكثير من الأشياء الكثير من الأحلام، الكثير من الأوهام، والكثير من المخاوف"[2]

الجزائر في الرواية فضاء جغرافي مفتوح وأيقونة ثقافية تحيل إلى نسق روحي عميق يفصح عن ارتباط البطل رضا شاوش بالجزائر كوطن وهوية وانتماء؛ وهو نسق دال على تبعية إيديولوجية وعمرانية للاستعمار وخير دليل وصف الراوي لأحد مطاعمها قائلا: " كان المطعم كبيرا، وعلى طراز حديث، لكن بلمسة عريقة تنتمي إلى العهد النابليوني أما اسم المطعم فهو باريس الصغيرة كل شيء فيه على الطريقة الفرنسية، والجميع يتكلم الفرنسية..."[3]كما أنها مركز اضطهاد وعنف وخراب... بسبب ممارسات السلطة آنذاك " ...كوابيس الحرب والموت، رائحة الذكريات التي تجأر بالصيحات المذعورة للمقتولين، والمعذّبين والمهجّرين، والمنفيين، ذلك الخراب الذي هو ثمن أي قوة يجب أن تحكم، والثمن يجب أن يدفعه الأقل قوة، والأكثر نبلا... كنت قد فهمت منطقهم دون شك، منطق هذا العالم الصغير الذي يحكم من خلف ستار حديدي..."[4]

تمثل هذه الفترة مرحلة معتمة من تاريخ الجزائر طالما رفض الحديث عنها ويبدو أن الروائي عايش هذه الفترة وغرست تفاصيلها في ذاكرته " أعترف أن ما حدث في الجزائر خلال العقد الاسود قد أثّر في كثيرا وترك بصمته على تجربتي من طرائقي السردية..." [5].

خط الروائي هذه الفترة في سيرة البطل رضا شاوش التي تسرد لنا الالتباس الحاصل بعد الثورة والانتقال من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين أو حين يتحول المناضل –رجل المخابرات– إلى جلاد وحش يفتك بالجميع حتى المرأة التي أحبها. " لم يدر ببالي أنني كنت أخون كل ما قرأت من كتب، أخون روحي وأنزلها إلى مستنقع دنس، وأرض تفوح بالكراهية والشر"[6]

وجاءت الأحداث على لسانه باعتباره أحد أجهزة السلطة كي لا تقبل أي نوع من الجدل حول صحتها – شهد شاهد من أهلها– يتبدى ذلك في أكثر من موضع في الرواية، ومنها الآتي:" ...وبعد التحرر شجعتهم الدولة حتى يزداد عددنا وحتى نزداد بؤسا على بؤس...أيام عصر الاشتراكية منْ كان يُصدق أننا سنموت بالجوع والعراء والفقر لاحقا..."[7]

---

[1] بشير مفتي: دمية النار، ص 31، ص34.
[2] المصدر نفسه، ص36.
[3] المصدر نفسه، ص 99.
[4] المصدر نفسه، ص153.
[5] إيهاب ملاح: حوار مع بشير مفتي، جريدة الاتحاد، الموقع الالكتروني غوغل.
[6] بشير مفتي: دمية النار، ص39.
[7] المصدر نفسه، ص31.

وفي موضع آخر" تلك الفترة التي كانت حينها واعدة رغم البؤس الاجتماعي المفرط والذي كان يحول أكثر الأحلام شراسة إلى رماد رميم"[1] لتصبح الحياة جحيما يتلاعب بالفرد الجزائري ويغرق جميع سبل النجاة أمامه" لقد ضاع خط الهداية، وهو بالتأكيد يشعر أن الأشرعة تمزقت والسفينة تتمايل راقصة قبل أن تغرق..."[2] ، وما يؤكد تأزم الأمور حينها واختلال الموازين اعتراف البطل الخطير حين همّ بإقناع ابن غير شرعي للعدول عن التنظيم الارهابي دليل قاطع على فساد السّلطة:" لقد حكمناكم خطأ وعارضتمونا خطأ"

- **البيت: الأسرة: التشظّي والضياع: البحث عن الوحدة والاستقرار:**

يصنف ضمن الأماكن المغلقة بالنسبة للمجتمع، تنوب أسرة رضا شاوش عن تمثيل الوطن؛ تنجح الثورة لكن المجتمع يفشل، أسرته صورة مصغرة للمجتمع تجسّد تحوُّل عائلة بكامل رجالها إلى جلادين مستبدين طغاة بدءا بالأب إلى الابن الأصغر الذي يتحول إلى دمية تزرع الدمار والخراب... ويتخذ من الأب المسؤول عن الاسرة رمزا للسلطة في الدولة المفككة، وتفكك الأسرة يحيل إلى تفكك الدولة رغم الاستقلال، ويجعله مديرا للسجن الذي يحيل الى عدم الاستقرار في الدولة وكذا الحرية المقيدة ... وخير ما نستدل به من الرواية الآتي:" لا أتذكر طفولتي جيدا، بعض الومضات الخاطفة فقط، بعض اللحظات التي تعود عودة أليمة، بصورة متقطعة، ومكسرة ومشوشة، مثلما رأيت أبي يضرب أمي ضربا عنيفا وهو يصرخ بهذيان ..." [3]

يحيل بيت بطل الرواية إلى نسق اقتصادي مزر و نسق اجتماعي متردّ يفتقد روح التكافل الأسري مظاهر الحب والحماية بسبب سياسة الوالد "لقد كان الحب هو هزيمتي المنكرة في هذه الحياة، وللحظة ربطت كل تحولي القذر من إنسان إلى إنسان آخر بهذا الضعف...كم يكون الضعف طريقا لارتكاب أبشع القذارات، وأسوأ الأفعال المنتظرة..." انزع من قلب الانسان الحب يقدر على ارتكاب كل شيء"" إن الحب يأتي عدة مرات، وقد يصيب، وقد يخطأ ولكن دع الحب دائما نُصب عينيك إنه قوة الانسان الوحيدة"،[4] غير أنه رغم ذلك لا تزال بعض اللحظات الخاطفة تطبع في داخل البطل وتزيح عنه آلامها ولنقل تحق سلاما روحيا "شعرت بعاطفة أبي القوية نحوي، لقد ضمّني على غير عادته بقوّة إلى صدره ثم حملني بين ذراعيه، وكانت تلك المرّة الأولى والأخيرة التي فعلها معي..."[5]، وتبقى مشاعر بطل الرواية متضاربة اتّجاه والده على حدّ تعبيره" ...كان يكفيني فخرا أنّ لي أبا يهاب منهالجميع، غير أنه كان يخيفني أنا أيضا، ولم أكن أجد لهذا أيّ تفسير، وقد حاولت أن أتفهم سر خوفيمنه، وعدم قدرتي حتى على الجلوس إلى جنبه مثلما يفعل الأبناء مع آبائهم، ولكنني لم أستطع فك ذلك اللغز، واكتفيت حينها بحنان أمي الرقيق، وما كانت تفعله لأجل حمايتنا نفسيا من قهر زوجها الغليظ. الخوف من الضرب كان أكبر وساوسي، بعدما رسخت في ذهني صورة ضربه لأمّي، ضربه الذي جعلها طريحة الفراش لأسبوع بأكمله"[6].

---

[1] بشير مفتي، ص5.
[2] المصدر نفسه، ص69.
[3] المصدر نفسه، ص25.
[4] المصدر نفسه، ص 155.
[5] المصدر نفسه، ص26.
[6] المصدر نفسه، ص27.

ويسترسل باحثا عن إجابة تشفع لأبيه قائلا:" ...ذلك الشعور المبهم بأنّني صرت إنسانا آخر، وحيدا، ولا تعنيني علاقاتي العائلية التي صارت من جهتي شكلية فقط، مجرّد ديكور أؤثث به من حين لآخر وحدانيتي تلك، لم أعد منهم، لم تعد عائلتي هي عائلتي"[1]

- **الحيّ: بلوزداد العريق ذو البصمة الفرنسية بلكور:**

يرسم الراوي صورة الحيّ العريق والتغييرات التي طرأت عليه بفعل الاستعمار بدءا بالاسم بلكور؛ ما أهّله ليكون مضمار سباق تهافت كبار رجال السلطة لاكتساب مساحة عمرانية فيه من فيلات وبنايات خاصة الجديدة منها طبعا؛ ونلمس أثر الاستعمار الغاشم حتى في ملامح الوطن التي لم تتبدل بالرغم من الاستقلال :" ...وكان سابقا يسمى بلكور، احتفظ باسمه الاول مثل بقية الأحياء بالعاصمة، أو كأن الاستقلال لم يفعل شيئا في حب الناس بالماضي أو كما أن هذه المدينة بقيت أسيرة النموذج الكولونيالي، هم الذين بنوها، وبعد الاستقلال أصبحت ملكا لنا،...تلك التي بنو عليها كل ذلك العمران الباذخ الجمال، الفاتن للبصر، المريح للعيش، لولا أننا لم نكن نعرف كيف نعيش، أو أنه من طول ما حرمونا من ملذات العيش لم نعرف كيف نختلق فننا الخاص للعيش"[2] هو الاستعمار إذن الهادم للّذات، القاتل للإبداع...

كما أنه رمز البساطة والطيبة بأبسط أشكالها ممثلا في الطبقة الشعبية البسيطة التي لا تزال تعمل جاهدة لتحقيق الحرية والتخلص من التبعية ورغم كل ذلك تبقى ملامح القناعة والسرور بادية في وجوههم على حد تعبيره:" ...وللناس الذين كان يُخيل إليّ أنهم سعداء بالفطرة،...، مزهوون بالمدينة التي تملكوها أخيرا، وأصبحت لهم، هم المنفيون في بلادهم منذ مئات السنين...."[3] ويبقى دائما شعورنا بالانتماء لمكان الذي ننتمي إليه وطنا، حيّا، وبيتا طفرة جينية تشكل ذواتنا وتزرع الفرح والأمل رغم كل شيء على حدّ تعبير الراوي: " ليس هناك دائما جواب، الانسان يعيش وكفى، وقد يشعر بسعادة قليلة في هذا العيش، وأحيانا تكون حياته مجرد عذاب متكرّر، ومستنسخ، ومستمر، ..."[4]

- **المقهى :الصحوة ورعب الحراك:**

هو المكان الذي يضم رفاق الحيّ على طاولة الشاي للراحة والترفيه؛ يتبادلون أطراف الحديث في مختلف المجالات؛ ويحيل إلى نسق اجتماعي مهمّش يسعى جاهدا للتعبير عما يجول في خاطره والبحث عن سبل الحرية والتخلص من الظلم والاستبداد لكنه للأسف يطبعه الخوف من السلطة المركز؛ يتجلى ذلك في موقف سكان الحي من والد البطل **رضا شاوش** الذي لا يتوانى عن إخبار والده بحقيقة الأمر لتنقلب الموازين ويضطر للكذب حماية لهم من بطشه حين لاحظ خوفهم " مرة سمعتهم في المقهى يتحدثون عنه وأحدهم يقول"إنه يعيش من تعذيب إخوانه (أي والد رضا)". أثارني ذلك، أفزعني أيضا، إنهم يتحدثون عن أبي، تمنيت يومها لو لم يرسلني والدي لشراء الحليب من ذلك المقهى العفن، ومن كان هؤلاء حتى يتكلمون عنه بهذا الشكل الوقح؟

[1] بشير مفتي، ص142.
[2] المصدر نفسه، ص 24.
[3] المصدر نفسه، ص24.
[4] المصدر نفسه، ص152.

وهل كان أبي معذبا حقا لإخوانه؟ أم هي وشايات لا غير، كلام تلوكه الالسن العاجزة عن فعل شيء حقيقي فتهم وترمي بفشلها على جبروت هذا، وقوة ذاك، وعدت منكسر الخاطر، أخبرته بما سمعت فرمقني بنظرة قاتلة، وأمسكني من يدي وأخذني لمقهى بسرعة، وطلب مني أن أرشده عمن تحدث عنه بالسوء. لأول مرة تعثر لساني، ورغم رغبتي في أن أشي بالذي تكلم عنه بالسوء إلا أن الوجوه الخائفة بالمقهى جعلتني أصمت، فنالني عقاب شديد القسوة منه" [1]

- **منزل عمو العربي: النسق الديني: وعي مهمش وتماهي الحريات في ظل قيم مرهونة :**

يقحم الروائي **بشير مفتي** في الاحداث شخصية ثانوية هي **عمو العربي** ليشير من خلاله إلى أن مجتمع الرواية عربي الأصل ذو ديانة اسلامية الغائبة تماما فيما سبق تيمّنا بعادات الاستعمار، وموجة التّدين المتشددة البادئة في الانتشار رويدا رويدا... وكذا الحصار الرهيب وسياسة العزلة الممارسة على الفئة المثقفة؛ فهو لم يتزوج قط وليس له أولاد إشارة إلى عدم الاستقرار في البلاد لأن الزواج عنوان الاستقرار والأمان، وأنه تحول من مهنة الصيدلة إلى اسكافي؟، كما يضيف أن منزل عمو العربي ملجأ للمشاغبين- في السياسة والأدب طبعا- حيث تمارس جميع طقوس التمرد والانحلال الخلقي، السياسي ... .يستدل على ذلك من الرواية بالآتي: " وكان يسهر على راحة كل من يزوره فيهديه كتبا، أو قنينة نبيذ... . وكان رجلا متقدما في السن، لم يتزوج، ولم يكن له أي ولد... كل ذلك كلفه غاليا فترك مهنة الصيدلة التي كان يعمل بها إلى تصليح الأحذية "[2] حيث أصبح منزله ملاذ كل الفئات المعارضة للحكم لا لشيء وإنما امتدادا للحركة الثورية أولا ولأنه معارض من الدرجة الأولى للسلطة الحاكمة "بومدين هو قمة الغرور الذي تصنعه عظمة القوة لتكسر عظمة الشعوب... كان يتحدث بإطناب، مسترسلا في شرح وجهة نظره التي كان يراها كالحقيقة، لا تحتاج إلى تدليل، يكفي أن الزعيم أدخله السجن، فقط لأنه اعترض عليه، وكانت ثقافته السياسية تسمح له بالحديث من دون توقف، كلام كثير كمن يملك موسوعة في ذهنه، يؤمن بقيمه ومثله العالية رغم الواقع كان يكذبها، وأحيانا يتناقض معها، ويكسر تلك الرؤية تكسيرا موحشا وقد حولها لأحلام مفتتة عن آخرها...عرّفني على جماعته التي كانت تنشط في الخفاء، وقال إنهم سيساعدونني على الفهم والعمل على تغيير الأوضاع.."[3]، لما لا وبطل الرواية يمثل عيّنة منهم وقد أقر بأنه بعيد عن الدين تماما" - لم يكن الدين في فترة شبابي مهمّا، بل كنا نعيش فورة اللا دين، لكنني الآن أشعر أنه صار يشغل وجدان الناس."[4]، خاصة أنه يتملص من تعاليمه السمحة" فكرت أن أقترح على رانية الزواج، حتى لو لم أكن مؤمنا بذلك العقد الاجتماعي بأي شكل من الأشكال..."[5]

ما اضطر بعضهم إلى قلب الموازين وتكوين جماعات متشدّدة تدافع عن الدين بل وتشدّد في أحكامه"... فلم يشأ أن يزعجني من جديد بالحديث عن موجة التدين التي بدأت تغزو الأحياء الشعبية والإقبال المهول على المساجد والإحساس بأن الخلاص

[1] بشير مفتي: دمية االنار، ص33.
[2] المصدر نفسه، ص7.
[3] المصدر نفسه، ص38
[4] المصدر نفسه، ص13.
[5] المصدر نفسه، ص 76.

الحقيقي لن يكون إلا بالدين، وليس بغيره"[1]؛ فهي الثورة، إذن، ضد كل من تسوّل له نفسه التلاعب بالدين رغم توصيات البعض "الثورة ستقوم في هذه البلاد، هم يعرفون ذلك بلا شك، حذّرتهم من التلاعب بالدين، قلت لهم اتركوا هذا الأمر، ولكنهم لم يسمعوني..."[2]، إنها حركة فساد تصاحب سابقتها تمتد أواصلها إلى السلطة لزرع الفوضى والرعب في نفوس الأهالي؛ وهو ما تحدث عنه عمو العربي الذي جبل على رفض الاضطهاد والظلم وكل مظاهر الطغيان"...ومرة تحت تأثير عمي العربي وهو يتكلم عن الفساد المعشعش في قمة الهرم حتى انتابتني حمى غريبة، وقلت سأقتلهم جميعا وأنهي مشكلة الفساد تلك، وأجعل عمي العربي يفرح ويهنأ ويعيش ما بقي له من حياة في طمأنينة وسعادة..."[3]

5.نسق المرأة: جدلية الغالب والمغلوب/ المركز والهامش:

سعى بشير مفتي إلى تعرية حالة المرأة في المجتمع الجزائري آنذاك وفق ثنائية الأنا والآخر، وتمريرها في خطابه السردي من خلال شخصيات نسائية (الأم، معلمة الابتدائي، رانيا)؛ ليناقش طبيعة الأنساق المسيّرة للذهنية الجزائرية والطريقة التي ينظر بها إلى المرأة. تحضر المرأة في الرواية كعلامة ثقافية تحيل إلى وضعية المرأة في المجتمع الجزائري ككيان مهمّش ومعنّف ممثّلا في أم **رضا شاوش** وآخر متحرر ممثّلا في معلمة الابتدائي **لرضا شاوش**، وحبيبته رانيا.

1.5. شخصية معلمة الابتدائي لرضا شاوش:

تصور الرواية معلمة الابتدائي مثقفة متحررة (مهمش غير طبيعي) تحاول جاهدة مقاومة ثقافة الصمت بامتلاكها سلطة الحكي، وتسعى لهدم سلطة الذّكورة التي تقضي بإقصائها الكلّي لترسيخ التبعية للذكر. تظهر معلمة الابتدائي في صورة المرأة الواعية المثقّفة المتأثّرة بالمرأة الثّائرة(أيام الثورة) يصفها الراوي قائلا: "...كانت تبدو متحررة من الخارج، أنيقة وهادئة الجمال، بارعة في اللباس، ترتدي سروال الجينز وتسرح شعرها للوراء كما الأوروبيات تقريبا... ولكن حذار منها فهي تشبه الأوروبيات وقد تفسد أخلاقك(على لسان والدة رضا)"[4]، فهي رغم المسحة الأوروبية إلا أنها لامست قلوب تلاميذها وزرعت فيهم حب الحياة والنضال "لقد كانت معلمتي ...خير من أعانني على خوض تجربتي بشكل آخر مختلف عن الذي كان يدمجني في مجموعة من الحالمين بتغيير واقع دنس، وغير الواقع الذي يمثله أبي، والاحباطات التي كانت تسببها لي مشاعري المتنافرة، والتي لم أستطع لم شتاتها بعد."[5]

كما علمتهم فلسفة الحياة وأن سر السعادة في الحياة نفسها؛ ونجحت في رسم الجانب المضيء من الحياة بعيدا عن جميع هواجسها وملابساتها فكانت خير معين على ترقيتهم معرفيا وروحيا:" كنت أتمنى سرا لو كانت معلمتي هي أمي بالفعل، تحسن الحديث بلغة جميلة تجعلني أومن بأشياء كثيرة، وأقتنع بأن جمال الحياة هو الحياة نفسها...أن تعيشها، وتحبها وتتذوق كل ما فيها من متع وملذات..."[6]

---

[1] المصدر نفسه، ص14.
[2] بشير مفتي، ص138.
[3] المصدر نفسه، ص 160.
[4] المصدر نفسه، ص29-30.
[5] المصدر نفسه، ص41.
[6] المصدر نفسه، ص30.

لقد أتاحت هذه الشخصية لذاتها عالما مخالفا للواقع هو عالم الأنثى المتحرّرة من قانون السلطة الذّكورية؛ يتجلى ذلك في مجابهتا لزميلها الذي ضايقها بالحديث عن لباسها واصفة إياه بالمتخلف والأصولي "تريدون تحرير النساء بسبهن وشتمهن يا للعار"[1]

غادرت المدرسة بمكيدة من المدير منتشيه صارخة:" لا أستطيع العيش مع هؤلاء الكلاب" [2]، واختارت العمل في أحد المراكز الثقافية فتشرف على مكتبة المتواضعة بحي **عبان رمضان** وهو المكان الأكثر حرية وراحة وبذلك "استطاعت أن تنقل إلى مسامعنا نبرات البوح الأنثوي ويقاوم ثقافة الوأد وطقوس النحر الثقافي والفكري"[3].

2.5. شخصية أم البطل رضا شاوش:

صورت الرواية الأم مهمشة معنّفة؛ تعيش حالة من الدونية تفرض إقصائها وتهميشها (مهمش طبيعي)، لتكون في الرواية علامة محمّلة بدلالات القهر والحرمان والعنف؛ فهي لا تكاد تذكر واقعا جميلا عن حياتها الزوجية غير أيامها الأولى معه "لا أدري، أعجبني، أوف لا أعلم... لقد كان وسيما نوعا ما، وطيبا، أهداني جلابية وقرطا نحاسيا، وخاتم فضة، وقال لي بأنه سيفعل كل شيء من أجل إسعادي...تحدثت أمي باقتضاب ثم أغمضت عينيها وبكت، شعرت بحرقتها حينها، لا شك أن وعوده ذهبت مع الهواء، وأن كل شيء تغير بعد شهر أو شهرين من زواجهما"[4]

هذه الشخصية على الرغم من هدوئها ورزانتها وصبرها إلا أن دورها مختزلا في دور بيولوجي (تربية الأبناء ومطية لإشباع رغبات زوجها): "لقد رأيته مرة يضربها بنعل حذاءه وهو يصيح بها، لأنها نسيت أن تحضر له كوب ماء" أيتها النعسانة خذي هذه"، يقذفها بالنعل فيصيب وجها أو صدرها أو كتفها ومرة يصيب بطنها فتكاد تسقط لهول تلك القذفة الجبارة لتختفي بسرعة دون أن ترد له الضربة وقد تعمد أحيانا إلى الاضراب عن الكلام ليوم أو يومين ونادرا ما يتجاوز ذلك، وتعود من جديد لعاداتها القديمة فتسمح له بمجامعتها في الفراش.."[5]

تحيلنا الرواية إذن، إلى النظرة التبخيسية للأنثى من خلال الأم وللنموذج السلبي الذي تحكمه ثقافة ذكورية سلطوية ممثلة في الزوج (والد **رضا شاوش**) مدير السجن، وهو تسلط نابع من ثقافة إسكات الصوت النسوي وقمع ذاتها في صورة المرأة التابعة؛ فهي المغلوب الذي ليس له أي سلطة على نفسه وخير دليل على ذلك الزام الأم باصطحاب الذكر في خرجاتها مهما كان عمره "كنت أعتقد أن أمي كانت تصحبني معها، حتى لا أبقى في البيت لوحدي، ولكنها في الواقع كانت تفعل لأن والي طان يشترط عليها أن تأخذ معها ذكرا ما من أبنائها عندما تخرج"[6]

تختار الأم للأسف قرار البقاء مع زوجها في بيتها على الرغم من حالة التشظي، ومشاعر اللامبالاة اتّجاه الأب الذي حرمها بهجتها وروحها المرحة" فالوصل بين المرأة والرجل لمجرد قضاء حاجة غريزية يقتل في الانسان روحه أو حقيقته الإنسانية، لأن الوصل

---

[1] بشير مفتي، ص30.

[2] المصدر نفسه، ص31.

[3] وجدان صائغ: شهر زاد وغواية السرد قراءة في القصة والرواية الأنثوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية لعلوم ناشرون، بيروت، 2008، ط1، ص139.

[4] بشير مفتي: دمية النار، ص35.

[5] المصدر نفسه، ص28.

[6] المصدر نفسه، ص26.

الذي تحرّكه الحاجة يقف حاجزا أمام معرفة الانسان بذاته وبالآخر"، [1] بل تلزمها طقوس الحياة مسايرته في أيامه الأخيرة وتحمل اختلالاته النفسية رغم تغير طباعه لكن مع كثير من مشاعر الجفاف .. "كنت أحبه، وكفى وكنت أمقته وكفى، كان يخيّل إلي أنه شخص لا يملك قلبا، أو عاطفة، أن مهنته في الزنزانة زادت من خشونة روحه وفظاظة قلبه..أن زمن بومدين أكمل عليه"[2]

6.النسق الفلسفي: الجمال يستطيع أن ينقذ العالم:

إن موت الحب الوحيد داخل البطل **رضا شاوش** وحرمانه من **رانيا** هو الذي دفعه إلى السير في هذا الطريق الشائك المتشابك المرعب الجالب للدمار وحرمه المقاومة وشرف المحاولة على غرار **رانيا** وإن ضعفت هي الأخرى وتغير مسار حياتها بفقدان حبها...، أقصد بالمقاومة هنا محاربة شيطانه الداخلي... وكأن بالروائي يصرّح علنا غياب الحب وحس الجمال بين أوساط المجتمع هو سبب الفساد والخراب في البلاد قائلا: " أما الحب فهو قصة أخرى، وهو من أجمل ما عشت بالتأكيد، ولكن عشته بكل ما فيه من جذوة الشوق ، وأنهار الألم...وكانت حياتي في الحب والعواطف مثل سيرة بحار تائه يبحث عن مرفأ يستريح فيه بعد معارك مضنية مع البحر وهمومه...لنقل أنني آمنت بالحب وصدقته ، ولم أعشه، أو عشته دون أن أتنعم به...الحب هو أهم شيء يمكن أن يحدث للإنسان في الحياة، بل سأجزم بالقول إنه من لم يحب ولو مرة واحدة في حياته فليقرأ على روحه السلام، ولا داعي لأن يقول أمامكم إنه عاش عيشة حقيقية.."[3]

لم يجن البطل **رضا شاوش** رغم حياة الرفاهية سوى التعاسة والألم في حياته؛ دليل ذلك حوار بين عمي العربي و**بشير مفتي** عن **رضا شاوش**: " — حياته لم يكن فيها أي مغامرة، ثم هل تريد أن أقول لك شيئا حقيقيا عنه، إنه إنسان تعيس للغاية، وأكثر ما يميز حياة التعساء أنهم لا ينجحون في أي شيء يقومون به. –لكنه يبدو بخير من الناحية المادية.– لم أقصد هذا الجانب بالذات، لقد تحسنت وضعيته منذ فترة لا أدري كيف، أعرف أنه صار يلبس بشكل أنيق ويسكن في بيت بأعالي حيدرة، وله حتى سائق خصوصي ولكن من الداخل هو دائما في حالة ألم..." [4]، تبعات الطفولة ومكبوتاتها وضياع حبّه (رانيا) صنعت من **رضا شاوش** الرجل المثقف (مركزا غير طبيعي) وجعلته مسيّرا فاقد الروح دمية نار تحرق كل من لامسها رغم رفضه الباطني لهذه التصرفات والمبادئ" ...هي قصة خيبة، وجرح ووهم، وربما الأسوأ من كل ذلك، هو أنها قصتي أنا بكل حروفها السوداء، وأبجديتها الحارقة. إنها قصتي التي عشتها وتخيلتها. وإنها ذاكرتي التي صنعتها وصنعتني في نفس الوقت..."[5] خاصة وقد فقد نشوة العيش وحرارة الحياة وحلاوتها بفقدان حبه" ما الغاية من الحياة؟ يكفي أن ينبض القلب بتلك السرعة الخاطفة حتى نقول هذا هو المنتهى/ المشتهى..."[6] المشتهى..."[6]

[1] نزهة براضة: الأنوثة في فكر ابن عربي، دار الساقي، بيروت، 2008، ط1، ص33.
[2] بشير مفتي: دمية النار، ص36
[3] المصدر نفسه، ص24.
[4] المصدر نفسه، ص16.
[5] المصدر نفسه، ص20.
[6] المصدر نفسه، ص 61.

7.رضا شاوش وتقويض الذات: الكتابة / سقوط السلطة، صحوة الضمير، المقاومة / الخلاص:

عرف **رمضان بسطاويسي** الكتابة بأنّها:" وعي بالمستقبل بوصفه قضية إنسانية لأن المستقبل هو جزء من كينونة الانسان التي تتحرك دوما بين قطبين الماضي وما به من خيرات توجه الأنا وتشكّل ملامحها الأساسية والمستقبل وهو الأفق الذي توجهه اللحظة الراهنة"[1]

تطلّ الكتابة كعامل مساعد للبطل **رضا شاوش** الذي اتّخذها طريقا لتصوير وفضح الواقع المزري المأساوي أملا في ايجاد الحلول وتحقيق الاستقرار لأنه يدرك تماما أن هذا السّواد بإمكانه إحداث تغيير مفيد على حد تعبير شيلر" الشاعر يحمل في داخله شهوة تغيير العالم".

يقدم **رضا شاوش** على فعل الكتابة لكي يصبح فردا قادرا على تجاوز هزيمته وبالتالي التخلص من تأنيب الضمير، فتشكل الكتابة نوعا من المقاومة –أي سقوط السلطة – على غرار مقاومة رانيا وتحديها لعائلتها في سبيل تحقيق حلمها."... فبالنسبة إليّ أنا أضعف من القتال حتى الموت من أجل أحلام ربما لن تتحقق (قول رضا) "..."إن الفشل الحقيقي هو أن يموت الإنسان دون أن يحاول أن تفشل في تحقيق ما تريد شيء، ولا تعمل من أجل تحقيقه شيء آخر... (قول صديقه عدنان) ...لقد تركت كلماته تلك بداخلي أثرا نافذا للغاية، وحقيقيا بالفعل "[2]

تثير حالة القلق والتضارب التي يعيشها رضا شاوش هالة من التساؤلات تستدعي البحث عن هذا التشظي النفسي فهو بالرغم من معاداته لسلوكيات الوالد أصبح نسخة عنه" لم أكن أعرف ما هي حقيقتي، وكانت أحيانا تتجلى في ذكرياتي القديمة، في تلك الحياة التي قطعت علاقتي بها، أو ظننت أنه يكفي التمادي في قتامة العالم، وسواد الحياة حتى يهجرنا ما كنا نؤمن به، ونعتقده.."[3]

اعتبر **رضا شاوش** الكتابة طريقا للبوح عن خواطره وللتكفير عن خطاياه ليحقق بعض السلام الداخلي "إنه نص غريب، لقد حلمت دائما بكتابة رواية، وها أنا أفي بوعدي لنفسي على الأقل، لكن بقيت أمور لم تكتمل بعد، وقد أكملها إن لم أمت، ولكن سأرسل لك المسودة لتطلع عليها"[4]ولا يكتف بالكتابة فقط وإنما يعمل جاهدا على نشر مسوداته عن طريق شخص آخر هو هو **بشير مفتي** لأنه خير شبيه له على حد تعبير عمي العربي وهو يقدّم **رضا شاوش** ل**بشير مفت**ي:" لا أدري لماذا يذكرني بشير.م بك أيام كنت شابا، وتحلم بالكتابة" [5]فالمهم لديه أن تتضح الأمور وينكشف المستور ليعبّر عن نسق ثقافي سياسي مشحون بالتبعية للاستعمار والتخلف والرجعية " لا أريد أن أعرف رأيك كل ما أريده هو أن تقرأه، ثم إن أردت أن تنسبه لنفسك فسأكون شاكرا لك هذه الخدمة فأنا لا أستطيع حتى نشره باسم مستعار"[6]، يحدث هذا وكلّه أمل في التغيير بحدوث طفرة تزيح

[1] بشير يخلف: الكتابة في البوح والامتاع، مجلة ثقافة، ع3، 4 مارس 2004، ص36.
[2] بشي مفتي: دمية النار، ص40.
[3] المصدر نفسه، ص154.
[4] المصدر نفسه،ص 19.
[5] المصدر نفسه، ص9.
[6] المصدر نفسه،ص 19.

عتمة الحاضر وتنسج خيوط مستقبل جديد مفرح لكنه غامض... الأمور لن تستمر بهذا الشكل، ستتغير بالتأكيد، لكن المستقبل بعد الحرب سيكون أكثر غموضا" [1]

ثانيا: تمثلات الهوية:

تفضح الرواية بشكل لا يقبل الجدل تمزق الهوية والانقسام الحاد الذي حصل في المجتمع الجزائري في تلك الفترة، فالأسئلة الكثيرة التي يطرحها البطل **رضا شاوش** على نفسه بعد كل جريمة يقترفها دون أجوبة هي في حقيقة الأمر أسئلة شريحة كبيرة من المجتمع الجزائري الذي فقد روحه، وضاعت أحلامه التي خضّبتها الدماء ومزجتها بقساوة العيش ومرارته" عجيب أمر هذه الحياة.. لقد وصلت للذروة فإذا بها تظهر لي كهاوية مفتوحة، سرداب مظلم، قلعة محصنة ولكن فارغة، طريق لا يوجد بعده طريق، كما لو أن الوصول هو النهاية في حد ذاته، والغريب أنني لم أطلب هذه الحياة، أو لم أسع إليها كما لم تكن هذه هي غايتي من وجودي على هذه الأرض، في هذه البلاد، ولكن الحياة شاءت أن أذهب حيث لم أقرر الذهاب..."[2]، وفي موضع آخر" صغيرا شعرت بلغزية أبي فلم أكن أفهم ذلك، وكان يبدو لي رجلا محكوما بسر، حتى يخيل إلي أنه رجل يعيش حياتين، سيرتين"[3]

يقر البطل بانفصام شخصيته إلى وجهين أحدهما محب لخير والحرية رافضا لكل مظاهر العنف والاستبداد، والآخر عدائي شرير يزرع الموت في كل مكان؛ وخير دليل هستيريا العتاب التي تسكن روحه بعد كل عملية يقوم بها "ماذا فعل لي ذلك الشخص لأقتله؟ لماذا نفذت تلك العملية؟"[4] وفي موضع آخر" ...، وتساؤلات بلا حد: هل كنت أفعل ذلك انتقاما، أم خوفا منه؟ وماذا لو عرف؟ هل سيعذّبني أنا أيضا من أجل إيمانه الكبير بسياسة بومدين؟ وكنت لا أعرف؟"[5]

كما يتبدى صراع الهوية عند البطل **رضا شاوش** بدءا باسمه – رضا: الراضي القنوع – وهو الساخط على نفسه وأوضاعه، وأوصافه فهو شخصية غامضة مثيرة للشك والتّساؤل، وملامح وجهه غير واضحة" ذا وجه يثير الحيرة والتساؤل" [6] . فالبطل الذي تعاطف مع ضحايا التعذيب في سجون والده معتبرا ذلك خيانة للإنسانية وللحرية الفردية " ... رغم اختلافه مع والده في كل شيء"[7] لم يتوان في ممارسة كل قبيح من قتل، اغتصاب، خيانة، وابتزاز – عند أول فرصة سنحت له –" فكنت أفعل ذلك بروح ميتة، وقلب عقيم، وجسد لا يرتجف، وكنت بقدر ما أُمعن في تعذيب الآخرين، أُمعن في تعذيب نفسي، كانت روحي الميتة تنهض من موتها الداخلي وتصرخ..."[8]

[1] المصدر السابق، ص 19.
[2] المصدر نفسه، ص153.
[3] المصدر نفسه، ص28.
[4] المصدر نفسه،ص 141.
[5] المصدر نفسه، ص 41.
[6] المصدر نفسه، ص6.
[7] المصدر نفسه، ص16.
[8] المصدر نفسه، ص 150.

معلّقا أفعاله على شماعة القدر الذي لا يقبل المعارضة" لا أظن، فقط يجب أن تعرف أنه مثلك تمرد في شبابه على والده، وقاوم جبروت سلطة عاتية حينها، وأنا أكبرت فيه تلك الشجاعة كثيرا فلم يكن من السهل في ظل سلطة بومدين أن تقف ضد الحكم وتناصبه العداء." [1] ويسرح بخياله إلى ذكريات الطفولة معللا هذه الطفرة " ...أحاول أن أعرف لماذا هو مختلف هكذا عن آباء زملائي في المدرسة، ولماذا مشاعري متناقضة نحوه أحبه وأكرهه، أخافه وأحترمه، أرغب في الانتساب إليه، وأمقت ذلك الانتساب..."[2]

انتقل **رضا شاوش** من طور الشخصية المسالمة البريئة (مركز طبيعي رجل) إلى طور الشخصية المخيفة المرعبة(دراكولا) مركز غير طبيعي رجل مسيّر" دخلت من يومها في ذلك المستنقع الكبير.. يجب أن أعترف بأن حياتي تغيّرت جذريّا بعدها، صار هناك شخص آخر يتكلم بدلا عنّي، ينهض صباحا ويقوم بمهامه التي يستوجبها مقامه الجديد ثم يعود للبيت، طلّقت حياتي السابقة تطليقا نهائيا، أو ظننت ذلك، أخذت الأشياء تقترب من عالم الصمت والعزلة، شكل من وضع قدميه في النّار محترقا بها، وصار هو النّار بعينها، النار التي يقتات بها، وتقتات منه،..."[3]، وقد خلت ملامحه روح الإنسانية، فغرقت روحه المذبذبة تحت أنقاض إرادته التي أسدلت ستارها على نبل أخلاقه وسلبت ذاكرته البريئة وخير مثال من الرواية " مع أنني، من خلال ما عشت، لم أعد قادرا على التفريق بين ما هو خيال وحقيقة، واقع وحلم."[4] تشابك الأمو في مخيلة رضا شاوش دليل على تذبذبه وتضارب أفكاره مؤشرات الهوية الهجينة خاصة عند زيارته **لبشير مفتي** :" لقد فرحت رغم ذلك برؤيتك، وقلت ها هو أخيرا شخص مستقيم في عالم مليء ب..."[5] فكيف له أن يصاحب أشخاصا يمقت أفعالهم إن لم يكن هجين الهوية...

يظهر الروائي تأزم حالة البطل النفسية شيئا فشيا الذي أصبح همه البحث عن مفتاح الحياة وسر الوجود ليصبح عرافا للخطايا قائلا:" أستعيد كل تلك الأشياء الآن، وأنا أبتسم، حياتي تبدو لي وكأنها مرت كالسراب، أو كاللعنة. يجب أن أعترف بأنني اعتبرت نفسي دائما شخصا غامضا ومجهولا (ليس تماما، ليس بهذا الشكل. أقصد الحقيقة لا أعرف ماذا أقصد) وكنت أعطي الانطباع لمن حولي بأنني كنز أسرار لا ينضب، أنه من الصعب عليهم فهمي، (حتى هذا ليس بالحقيقة الكاملة، كما لو أني في هذه اللحظة لا أعرف ماذا أقول)"[6] ليحلق في رحاب فلسفة الحياة وسر الوجود معانقا تصريحات صديقه عدنان" لقد كان عدنان هو الوحيد الذي الذي يقول: ليس ثمّة حقيقة في هذا الوجود، وعلى الانسان أن يؤمن بأن وجوده هو الحقيقة الوحيدة. أنا أرد: بأي معنى؟ إن غياب المعنى عن أي فعل نقوم به يعني غياب القيمة، لماذا لسنا حيوانات إذن؟ فيرد عدنان بنفس الجدّية التي يتكلم بها دائما: ومن قال لك أننا لسنا مجرد حيوانات، العقل لا يفعل شيئا مهما بحياتنا انظر لنا نحن نعيش ونموت، نولد لنرحل ذات يوم، هذا كل ما في

[1] بشير مفتي، ص15.
[2] المصدر نفسه، ص28.
[3] المصدر نفسه، ص 145.
[4] المصدر نفسه، ص20.
[5] المصدر نفسه، ص 18.
[6] المصدر نفسه، ص23.

الأمر.."[1] وينتهي به المطاف من دمية دراكولا إلى دمية مسالمة فعلا لا تستطيع الحراك لمجرد رفضه للواقع واسدال الستار عن روحه المرحة وطروحاته المتحررة "...وبينما كانت فوهة تداعب جبهتي كانت حياتي كلها تمرق كشريط سينمائي قدّام عينيّ، كنت أنظر لنفسي طفلا ثم مراهقا ثم شابا ثم رجلا ثم وحشا أكل الظلام كل ما كان في روحه من بقايا أنوار قديمة .."[2].

خاتمة:

تبين ممّا سبق ذكره، في هذا البحث الذي طوّع النص الروائي وفق غيابات المناهج الغربية الوافدة؛ وسلّط الضوء على الواقع النصي من خلال منهج النقد الثقافي وبيان البؤرة التي ينطلق منها للكشف عن أنساق وجماليات النص في إطار المنظومة الثقافية المنتجة له، وتوصل إلى الآتي:

-المقاربة الثقافية لنص دمية النار كشفت عن بواطن الألفاظ من دلالات وأنساق مضمرة تحيل إلى إيديولوجية وقصدية الأديب **بشير مفتي**، من خلال العلامة الثقافية؛ إذ تضافرت جملة من الانساق: سياسية، اجتماعية، اقتصادية...في التعبير عن نسق مظلم من حياة البطل **رضا شاوش** في فترة مابعد الاستقلال تفصح عن تبعية إيديولوجية للاستعمار تأثرت بها أطراف السلطة الحاكمة آنذاك... ما خلّف مآسي وآلام كثيرة...

-المقاربة الثقافية فضاء ممتع لتلاقح جميع المقاربات الأخرى كالسيميائية مثلا حيث مكنت من الكشف عن ارتباط عنوان الرواية **دمية النار** بمضمون النص الروائي بعلاقات دلالية أتاحت الإشارة إلى خباياه، فالبطل **رضا شاوش** تحول من مركز طبيعي (رجل) إلى مركز غير طبيعي رجل مسيّر تقوده أهواء السلطة الحاكمة في سبيل نشر الذعر والخراب بين أفراد المجتمع المعارض.

-ترسبات الواقع المعيش أنتجت شخصيات هجينة الهوية ترفض الواقع بإيديولوجياته وطروحاته في باطنها ولا تتوانى عن مسايرتها وتطبيقها ظاهريا.

[1] المصدر نفسه، ص 152.

[2] بشير مفتي، ص 165.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

بشير مفتي: دمية النار، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

المراجع المترجمة:

غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هالسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع، بيروت، ط2، 1984.

ميشال فوكو : حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1987.

هومي.ك.بابا: موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006

المراجع العربية:

بدر عثمان: بناء الشخصية الرئيسية في الرواية نجيب محفوظ، دار الحداثة، ط1، بيروت،1986 .

حميد لحميداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط3، 2000.

عبد الله الغذامي: النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط3، 2005.

عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، دمشق، 2004.

عصام واصل: الرواية النسوية العربية، مساءلة الأنساق وتقويض المركزية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2018.

نزهة براضة: الأنوثة في فكر ابن عربي، دار الساقي، بيروت، ط1، 2008.

وجدان صائغ: شهر زاد وغواية السرد قراءة في القصة والرواية الأنثوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية لعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008.

المقالات:

بشير يخلف: الكتابة في البوح والامتاع، مجلة ثقافة، ع3، 4 مارس 2004.

المذكرات:

سهام لغويل: سيميائية الخطاب المحكي في الرواية الجزائرية المعاصرة-الكتابة النسوية أنموذجا، مذكرة لنيل الماجيستير، إشراف: ناصر ستنبول، جامعة وهران، أحمد بن بلة، 2015-2016

مواقع الانترنيت: إيهاب ملاح: حوار مع بشير مفتي، جريدة الاتحاد، الموقع الالكتروني غوغل، أكتوبر 2022، الساعة 18.00، الجزائر.